● **المبحث الأول : مآل الأقلية الدنيوى صلاحا وتمكينا :**

النصان اللذان سنعتمدهما هنا بصورة أساسية يختلفان اختلاف تكامل من حيث القضايا التى يطرحانها، فالأول يعالج مآل الأقلية من جهة العدل والصلاح والثانى يعالجه من جهة اعتراف العدو للأقلية بحنكتها على قلتها بحيث تغيظه وتخيفه حتى ليحذر بطشها، وترتبط هذه الفكرة بالاستخلاف فى الأرض لهذه الأقلية واندحار الأكثرية وانهزامها.

وعلى هذا فإنه من اللائق منهجيا أن نقسم هذا المبحث إلى عنصرين يتناول الأول مآل الأقلية من جهة العدل والصلاح، ويتناول الثانى مآل الأقلية من جهة التمكين والغلبة والاستخلاف :

* * *

● **المطلب الأول : مآل الأقلية من جهة العدل والصلاح :**

العدل قوام الحضارات وعنوان التقدم ومؤشر استمرار الدولة، والظلم يؤذن بسقوط الدول وفناء الشعوب وفساد الأخلاق، والنص الذى بين أيدينا لمعالجة ذلك هو قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ [ص : ٢٤]، فعبارة الآية فى مجملها تلخص مشكلة العدل والبغى، وتجعل العدل صفة لسلوك الأقلية والبغى صفة لسلوك الأكثرية، والعبارة : ﴿ **وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ للدلالة على أن المؤمنين الصالحين الذين يعدلون حقا قلة، ولهذا جاءت الصيغة بهذه الصورة « للإبهام وفيه تعجب من قلتهم »[١]، والقصد الأساسى من الآية هو « « الترغيب فى إيثار عادة الخلطاء الصلحاء الذين حكم لهم بالقلة، وأن يكره إليهم الظلم والاعتداء الذى عليه أكثرهم مع التأسف على حالهم، وأن يسلى المظلوم عما جرى عليه من خليطه وأن له فى أكثر الخلطاء أسوة »[٢].

ومعنى ذلك أن مآل الأقلية فى الدنيا هو السعى الجاد لتحقيق العدل بين البشر، وأن هذه الأقلية التى تحقق ذلك فعلا إنما هى التى تجمع بين صفتى الإنسان الكامل الذى يليق برسالة الاستخلاف فى الأرض، وهما الإيمان والعمل الصالح،

---

(١) الكشاف : ٣ / ٣٧١ .

(٢) الكشاف : ٣ / ٣٧١ .

فالذين تجتمع فيهم هاتان الصفتان هما المؤهلان للحكم بين البشر وقيادته، ولذلك استثناهم من الأكثرية التي يغلب عليها طابع الظلم والجور فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، فالتذييل بقوله ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ حث للناس أن يكونوا من المؤمنين الصالحين لما هو متقرر في النفوس من نفاسة كل شيء قليل[1].

ولما كانت الآية قد وردت في سياق الاستخلاف والقضاء والحكم إذ جاء بعدها قوله: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦] فإن القصد هو بيان أن مآل الأقلية هو الاستخلاف في الأرض، لتوفر مبررات ذلك وهي الإيمان والعمل الصالح، وهما العاملان اللذان رشحا داوود عليه السلام لمهمة القضاء والحكم بين الناس بالحق، بعيداً عن الأهواء والنزوات التي من شأنها التضليل عن الاحتكام إلى شرع الله وسبيله الذي اختاره لعباده وشَرَّعه لهم، قال ابن عاشور: «فرَّع على جعله خليفة أمره بأن يحكم بين الناس بالحق للدلالة على أن ذلك واجبه وأنه أحق الناس بالحكم بالعدل، ذلك لأنه هو المرجع للمظلومين، والذي ترفع إليه مظالم الظلمة من الولاة فإذا كان عادلاً خشيه الولاة والأمراء، لأنه ألف العدل وكره الظلم فلا يقر ما يجري منه في رعيته كلما بلغه فيكون الناس في حذر من أن يصدر عنهم ما عسى أن يرفع إلى الخليفة فيقتص من الظالم، وأما إن كان الخليفة يظلم في حكمه فإنه يألف الظلم فلا يغضبه إذا رفعت إليه مظلمة شخص ولا يحرص على إنصاف المظلوم»[2].

والآن هل الأصل في البشرية حب الظلم لذلك قال ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؟ أم أن الأصل والفطرة حب العدل، وإنما ذهب ذلك من النفوس بذهاب الإيمان والعمل الصالح اللذين من شأنهما الحفاظ على سواء الإنسان واستقامة بنيته النفسية ومنطقه في الحياة وشؤونها كلها، فلم يبق

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣ / ٢٣٦.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٣ / ٢٣٧.

من الخلق على السوية إلا قليل لذلك قال: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾؟ وإذا كان الأمر على الاحتمال الثاني فما سر انقلاب الإنسان على وجهه وسقوطه هذا السقوط الذي أفسد عليه جمال الحياة فجعلها ظلما وزورا؟

يرى ابن عاشور أن «السبب في ذلك من جانب الحكمة أن الدواعي إلى اللذات الدنياوية كثيرة والمشي مع الهوى محبوب ومجاهدة النفس عزيزة الوقوع، فالإنسان محفوف بجواذب السيئات، وأما دواعي الحق والكمال فهو الدين والحكمة، وفي أسباب الكمال إعراض عن محركات الشهوات، وهو إعراض عسير لا يسلكه إلا من سما بدينه وهمته إلى الشرف النفساني، وأعرض عن الداعي الشهواني، فذلك هو العلة في هذا الحكم بالقلة، وزيادة (ما) بعد (قليل) لقصد الإبهام.. وفي هذا الإبهام إيذان بالتعجب من ذلك بمعونة السياق والمقام»(١).

ولاشك أن تاريخ الإسلام يقدم لنا نموذجا حيا لهذه الأقلية التي استحقت الاستخلاف لتوافر شروط ذلك فيها على أقلية عددها وضعف عدتها، وقد بلغت هذه النماذج شأوا بعيدا في زمن الرسول ﷺ حتى وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وعقب على ذلك بما يشير إلى المقارنة بين المسلمين زمن الرسول ﷺ وأهل الكتاب فقال: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٢).

وعلى الجملة فإن مآل الأقلية من جهة العدل في القضاء هو الاستخلاف في الحكم والقضاء لقيام الاستخلاف على العدل والصلاح، وقيام هذين على الإيمان الحق. وهناك جانب آخر مهم في مآل الأقلية وهو دخولهم في الصالحين ليستقيم حالهم وتطمئن نفوسهم ويطيب لهم العيش لانسجامهم مع الأجواء الجديدة المناسبة لأجوائهم النفسية والفكرية والثقافية والسلوكية، وهذا ما تشير إليه الآية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩]، هذا فضلا عن راحة الضمير.

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٣ - ٢٣ / ٢٣٧.

(٢) نفسه.

● **المطلب الثانى : مآل الأقلية من جهة الغلبة والتمكين والاستخلاف :**

للغلبة قوانينها التى تفرضها طبائع البشر وموازين القوى، وللاستخلاف سننه الروحية التى تتحكم فيها إرادة الله، وسنقف عند هذه الظاهرة التى تتحكم فى حركة التاريخ من خلال النص التالى، لبيان حركتها فى ضوء مشكلة الأقلية والأكثرية، إذ كثيرا ما يتوهم الناس أن الغلبة تتحكم فيها القوة وأن القوة ناجمة عن الأكثرية، فى حين أن حركات الأنبياء والرسل فى التاريخ تبين أن قانون الاستخلاف والتمكين والغلبة لا يخضع لقاعدة القوة بذلك الفهم الواهم إذ أن القوة ليست وليدة الكثرة والغثائية كما سيتبين من بعد.

أن النص الذى سنعتمده فى دراسة هذا الموضوع هو قول الله تعالى :

١- ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ [الشعراء : ٥٢- ٥٩].

٢- ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [الأنفال : ٢٦].

٣- ومع النصين السابقين سنعتمد الأحاديث الشريفة، فنحن مضطرون لإتمام الموضوع - إلى اعتماد حديث الغثائية للإجابة عن قضية كبرى وحقيقة استراتيجية فى مشكلة الغلبة وعلاقتها بالأقلية والأكثرية، فقد روى عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها قال : قلنا يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ قال أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السبيل، تنزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل فى قلوبكم الوهن، قال : قلنا وما الوهن؟ قال : حب الحياة وكراهية الموت؟[1]، كما سنحتاج إلى وقفة عند ظاهرة الاستكثار لصف العدو

---

(١) أحمد بن حنبل : المسند ٥ / ٢٧٨ دار صادر بيروت.

جهلا بدور الحرب النفسية فى قانون الغلبة، مما يفرض استثمار الحديث الشريف: «عن أبى الأسود قال: قطع على أهل المدينة بعث، فاكتتبت فيه، فلقيت عكرمة فأخبرته فنهانى أشد النهى، ثم قال أخبرنى ابن عباس: أن ناسا من المسلمين كانوا من المشركين، يكثّرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ فيأتى السهم فيرمى فيصيب أحدهم فيقتله أو يضربه فيقتله فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧]»(١).

من خلال هذه النصوص نجد أنفسنا أمام مجموعة من القضايا المرتبطة بمآل الأقلية من جهة الغلبة والاستخلاف، فى مقابل مآل الأكثرية من جهة الانهزام والاستئصال. فنحن أمام قضية الرؤية التى ينطلق منها الكفار بالنسبة لقانون الغلبة، ثم بيان الطرح العلمى الحقيقى لسنة الغلبة باعتبار تدخل المبدأ الروحى الذى لم يكن بالحسبان فى الرؤية الأولى، ثم التفسير النبوى لظاهرة الغثائية، ثم التنبيه على خطر ظاهرة استكثار صف الكفار.

(أ) الرؤية التى ينطلق منها الكفار فى تحليل قانون الغلبة وسننها:

عند تدبر قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء ٥٢ – ٦٧].

عند تدبر هذه الآيات تتبين لنا الرؤية التى ينطلق منها الكفار بالنسبة لقانون الغلبة، فهم يجهلون دور الغيبة فى مسألة الغلبة، ومن ثم لا يوظفون فى

(١) صحيح البخارى كتاب الفتن رقم ٧٠٨٥ – ج٤ ص٣٦٢.

رؤيتهم كل العناصر المتحكمة فى هذا القانون، لقد وظف فرعون هنا «مبدأ الأكثرية» فقط كعنصر حاسم فى العملية الحربية، لذلك أرسل عيونه لجمع القوات الكثيرة من كل حدب وصوب ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ولفظ (حاشرين) مع لفظ (المدائن) هكذا بصيغة الجمع تفيد أن الكثرة عنده هى العنصر الحاسم فى عملية المغالبة، لقد أمر «بما يسمى التعبئة العامة، وأرسل فى المدائن حاشرين يجمعون له الجنود ليدرك موسى وقومه ويفسد عليهم تدبيرهم»(١).

وتكتمل هذه الرؤية عندما نراه يهوِّن من شأن قوم موسى ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ فهم من منظور معياره ليسوا مرشحين للغلبة لأنهم ليسوا أكثر من شرذمة، والشرذمة فى اللغة القليل من الناس غير المترابطين، وفى ذلك إيحاء بالتقليل من شأنهم من جهة الاستعداد القتالى، ويؤكد بلفظ (قليلون) أقلية جيش موسى.

(ب) الطرح العلمى الحقيقى لسنة الغلبة باعتبار تدخل المبدأ الروحى: لا شك أن هذه الرؤية غير سليمة، إذ أن العبرة ليست بالكم إنما هى بالكيف، وحتى الكيف ينبغى أن يدخل فيه العنصر الروحى والجانب الغيبى كى تكتمل المعادلة، فلا يكفى الاستعداد التقنى، بل لابد من التعبئة الروحية، الإيمان الذى يجعل الانتصار حتمية تاريخية، لأنه يدخل عندئذ فى السنن، كما بين ذلك القرآن فى مواطن كثيرة، كما فى قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] فالآية هنا تعدِّل الرؤية لتبين أن قانون الغلبة يخضع لحتمية روحية «لا يملك فرعون أسباب رؤيتها، لأن رؤيته تتوقف فقط عند العلم بالظاهر ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧]، ولا يعرفون معنى لمعية الله.

ثم إن القرآن الكريم يبين أن التركيز على عنصر الكم فى الغلبة غلط فاحش

---

(١) فى ظلال القرآن: ٥/١٩/٢٥٩٧.

في الرؤية حتي عند المسلمين في أوج قوتهم، فيقول مصححا هذه الرؤية: ﴿ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** ﴾ [التوبة: ٢٥- ٢٦].

لقد كان المسلمون يظنون - فى لحظة غفلة - أن الغلبة قائمة على الكم، فاغتروا بالعدد والكثرة حتى قال أحدهم «لن نغلب اليوم من قلة»[١] فكانت النتيجة هى الانهزام الذى جعل الأرض سعتها تضيق عليهم من شدة ما يرون من بطش الأعداء، وترتب على ذلك الهروب ﴿ **ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ** ﴾ لقد «زل عنهم أن الله هو الناصر لا كثرة الجنود فانهزموا حتى بلغ كلهم مكة وبقى رسول الله وحده».

ولكى تتم الصورة الحقيقية للرؤية السليمة بَيَّن أن دخول عنصر الروح فى معادلة الغلبة قد غير نتيجة المعركة جذريا ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** ﴾.

إن الغلبة كانت فى النهاية بالأقلية التى ثبتت مع رسول الله ﷺ، تلك التى ذهب عنها الغرور واعتمدت دور العنصر الغيبى والروحى فى الغلبة.

والأمر نفسه كان قد حدث فى المعركة الفاصلة بين سيدنا موسى وفرعون، إذ كانت النتيجة هى خيبة أمل فرعون فى كل تلك العدة التي أعدها لمغالبة شرذمة قليلة على حد تعبير القرآن عن رؤيته، ﴿ **وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾.

والغريب أنه كما وقع بعض المسلمون فى خطأ إدراك معادلة الغلبة فظنوا أنها تخضع لمبدأ الكثرة، أخطأ كذلك بنو إسرائيل فى تقديرهم، فصحح لهم موسى عليه السلام رؤيتهم، قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ**

---

(١) الكشاف: ٢/١٨٢.

﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٦] «وقعت المعجزة وتحقق الذى يقول عنه الناس المستحيل، لأنهم يقيسون سنة الله على المألوف المكرر، والله الذى خلق السنن قادر أن يجريها وفق مشيئته عندما يريد»(١).

تلك هى القاعدة الأساسية التى تحكم معادلة قوانين الغلبة في الصراع إذ ليست المعادلة قائمة على عنصرى العتاد والعدة بحيث نقول:

(عتاد + عدة = غلبة)

فهذه المعادلة غير صحيحة فى الرؤية الإسلامية إنما الصحيح هو المعادلة التالية:

(عتاد + عدة + العامل الروحى = الغلبة والقهر)

وهذا مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾[الأنفال: ٦٥].

ويؤكد ذلك قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]، فهذه الآية ترسم مشهدا حيا للقلة والضعف والقلق والخوف، ثم تبين النهاية فإذا هى النصر الناجم عن الغيث الربانى، فالله هو الذي آواهم ونصرهم وهم قليل مستضعفون فى الأرض لكنهم صاروا قاهرين بتأييد الله.

وهذا العامل الروحى شديد الوطأة فى معادلة الغلبة لدرجة أنه يدخل كما رأينا – فى تحليل قطب – فى دائرة المعجزة، لكونه يكون خارجا عن الحسابات الظاهرة فى قوانين الغلبة، فلا يدركه إلا قلب قوى الإيمان، شديد التوكل على الله، قلب يعرف معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]، ولهذا العامل صور يظهر عليها، منها إلقاء السكينة فى

---

(١) فى ظلال القرآن: ٥/١٩/٢٥٩٨.

قلوب المؤمنين كما رأينا فى تاريخ غزوة حنين، ومنها بث الرعب في قلوب الكفار كما يبين قوله تعالي: ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ** ﴾ [الأنفال: ١٢]، قال الزمخشرى: «لا معونة أعظم من إلقاء الرعب فى قلوب الكفرة»(١).

تلك هى الحقيقة الساطعة فى رؤية الإسلام لقانون الغلبة، وتلك هى المعادلة التى يقوم عليها الوعى الصحيح لهذا القانون، وكنا قد رأينا خطأ فرعون فى تقدير أطراف المعادلة وتبين لنا كذلك كيف كان تقدير المؤمنين حينما يكون الحس الظاهر هو الرقم الاعتبارى فى المعادلة، وكيف وقع قوم موسى فى الخطأ ثم تبين لهم وجه الحقيقة بعد النجاة، ثم كيف وقع المسلمون فيه ثم انكشف لهم فى المعادلة بعد الثبات النبوى ومن معه فى حنين، وبذلك عرف أن الكثرة قد تكون غثاء، وهو ما سنراه.

* * *

(١) الكشاف: ٢/١٤٨.